حسن أبو الخير
باحث متخصص في التراث
مصر

لماذا التراث؟

هذه الكلمة مأخوذة من مادة (ورث) التي تدور معانيها حول حصول التأخر على نصيب مادي أو معنوي ممن سبقه: من ولد أو قريب أو موص أو نحو ذلك. وفي الكتاب العزيز: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ (النمل:١٦).

وأجمع اللغويون على أن (التراث): ما يخلفه الرجل لورثته. وأن تاءه أصلها الواو، أي: (الوراث). وله نظائر أخرى منها: (التجاه) أصلها (الوجاه)، و(التخمة) أصلها (الوخمة)، و(التهمة) أصلها (الوهمة)، و(التكلان) أصلها (الوكلان).. إلخ.

وجاءت الكلمة في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ (الفجر:١٩): كانوا في جاهليتهم يمنعون توريث النساء وصغار الأولاد، فيأكلون نصيبهم، ويقولون: لا يأكل الميراث إلا من يقاتل، ويحمي حوزة القوم، وكانوا يأكلون جميع ما تركه الميت من حلال أو حرام، ويسرفون في إنفاقه[1].

وجاءت في السنة في أكثر ما دعا به النبي ﷺ عشية عرفة في الموقف: «اللهم لك الحمد كالذي نقول، وخيرا مما نقول. اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولك رب تراثي. اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر. اللهم إني أعوذ بك من شر ما تجيء به الريح»[2]. أي: مالي الذي أخلفه فإنه لله تعالى، فمن أنه لا يورث وأن ما يخلفه صدقة لله.

وجاءت في الشعر القديم في قول سعد ابن ناشب، وهو شاعر إسلامي، كان بلال بن أبي بردة قد هدم داره؛ لأنه أساء دما في قوم:

فإن تهدموا بالقصر داري فإنها
تراث كريم لا يبالي العواقبا

وجاءت في كلام العرب: في قول عوانة الكلبي: لم يؤيد المجد بمثل كعب، ولم تعل المنابر بمثل قريش، ولم يطلب التراث بمثل تميم، ولم ترع الرعايا بمثل ثقيف، ولم تسد الثغور بمثل قيس، ولم تهج الفتن بمثل ربيعة، ولم تجب الخراج بمثل اليمن[3].

والمراد بـ(التراث) في الاصطلاح: هو التراث الفكري، وهو كل ما خلفه العلماء مكتوبا في فروع المعرفة المختلفة. ولهذا فالتراث ليس محددا بتاريخ معين؛ إذ قد يموت أحد العلماء في عصرنا هذا، فيصبح ما خلفه مكتوبا تراثا بالنسبة لنا[4].

والتراث العربي يتناول كل ما كتب باللغة العربية، فهو:

١- من نعم الله عزوجل على هذه الأمة، فقد فضل الله المسلمين على الكافرين بنعم عظيمة، وآلاء جسيمة، من أجلها «نعمة التراث» هي شتى العلوم والمعارف الإسلامية، مما خطته أقلام المسلمين، وانتشت عنه المفاهيم في نصوص الوحيين الشريفين، وما تفرع عنهما، وما دلا عليه من علوم شتى، ومعارف جلى، بقي منها على الرغم من عاديات الأيام نحو ثلاثة ملايين «مخطوط» في نحو ألفي مكتبة من مكتبات العالم، ويوجد مجموعة كبيرة من فهارس هذه المكتبات في

Scanned by CamScanner

للمكاتب العامة بالجامعات والمجامع العلمية.

٣- من ميزات هذه الأمة، فيما أعتقد التقريبي للتراث الإسلامي المخطوط في خزائن العالم تميز به المسلمون مع تطاول القرون على أمم الأرض كافة. فهو في تميزه يكون في حياة من أمه، وانفلتت عنه قريحته دينا يتقرب به إلى الله تعالى، وعلما ينتفع به من شاء الله من عباده «فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» و«رب مبلغ أوعى من سامع» وحملا للدعوة إلى الله تعالى، وبلاغا إلى قوم آخرين. ولم يحصل لهم هذا التميز إلا بعد جهد جاهد من الطلب والتحصيل وسعة معارفهم وعلومهم، وتعددها، محفوفة بسداد كلامهم، وسلامة منهجهم (رحمة الله عليهم أجمعين).

٣- يكون هذا «التراث» في حياة المسلمين: أمانة تحت أيديهم هم مستحفظون عليها، ولعلمائهم العاملين حق الغوامة عليها بحملها وتبليغها من بعدهم: لقول النبي ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله: ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» (رواه أحمد).

٤- هذا التراث هو الذي شكل وجدان الأمة، وهو الذي صان وحدتها على مر العصور، وفي ظله تهاوت الحدود الجغرافية والفوارق العرقية. وفي ثناياه استزحت العروبة والإسلام امتزاجا رائعا. فالإمام البخاري مثلا استقر في عمائرنا وأصبح أحد مكونات نسيجنا الثقافي، دون أن يخطر على بال أحد أن يفكر في جنسه أو موطنه، ودون أن يتساءل أحد: هل هو عربي أو غير عربي، فقد دانت العروبة في بوتقة الإسلام، كما دانت جنسيات أخرى كثيرة ولغات أخرى كثيرة. وبقي ذلك الرحيق المقدس الذي يتألق عليه التراث العربي المخطوط، والعروبة هنا عروبة لغة ولسان لا عروبة عرق أو مكان[1].

٥- هذا التراث هو الرصيد الحضاري للأمة، وذاكرتها التي تحيا بها، وهو رمز الأصالة، وبه تستشرف الأمة ويدرك شخصيتها المتميزة، والتنكر له هو في الحقيقة تنكر لذاتنا وانسلاخ عن هويتنا.

٦- هذا التراث كنز من كنوز الأمة، وهو مصدر عزها ومجدها في الحاضر والمستقبل، فالتطور المدني والتقدم الحضاري المرجو حصوله، لا بد أن تسبقه نهضة علمية قوية تسير الطريق وتضع العلامات والمنارات لسالكيه، والنهضة العلمية لا تأتي إلا بمعرفة ودراسة الإرث القديم، الذي هو ذاكرة الأمة، والأمة التي لا ذاكرة لها لا مستقبل لها.

فلا بد من العودة لتراثنا العربي الوجود وبعثه من جديد دون تباطؤ أو تخاذل، مع أخذ ما وصل إليه غيرنا من تقدم في جميع العلوم المادية دون استكاف أو خجل، وإن كثرت العقبات في هذا أو ذاك، ولكنها المحاولة ومنازلة الصعاب لعلنا نظفر بما يرضي ربنا ويعلي شأننا.

٧- التراث العربي جزء لا ينفصل عن تراث الإنسانية عامة، ووجه من وجوهه المشرقة، التي اقترن فيها العلم بالقيم، والمعرفة بالتحرية.

وتراث هذه منزلته الكبيرة، ودرجته الرفيعة، كم يفرح المسلم إذا فتحت خزائن الكتب في ديار المسلمين، وحنت إليها المخطوطات، أو مصوراتها من أنحاء العالم. وكم يبتهج إذا وضعت الفهارس لمكتبات العالم، وطبعت وصار ما تناثر منها في أرجاء الدنيا في زاوية من مكتبة. وكم ينعم المسلم إذا رأى لافتة هينة تساعد المحققين على حرفتهم الشاقة، ورحلتهم المضنية في إخراج التراث. وإذا رأى مطبعة تنبرها أيد نقية، فأدرك أمينة. وإذا قامت مصلحة حكومية، أو خيرية، تعنى بتسويل الكتاب ونشره للناس.

أما إذا نفض غبار الزمن عن «مخطوطة» وتداولها الناس مطبوعا، فهذه نعمة كبرى، تحوي مجموعة الآلاء:

١- إنقاذ المخطوط ونشر ما فيه.

٢- واستثمار عطية الماضين.

٣- وانتفاع من شاء الله من عباده به.

٤- وتقوية إعداد الأمة في الحاضر.

٥- ومد أمالها المستقبلية على جسور من العلم والمعرفة.

٦- وتحريك الهمم وشحذ الأذهان بالعلم والبحث[2].

الهوامش

١- التراث العربي، عبدالسلام هارون، ص(١٩-٢٢).

٢- الترمذي (٢٤٣٠) وقال: حديث غريب من هذا الوجه وليس إسناده بالقوي. وقال ابن الأثير في جامع الأصول (٤/٣٢٢) وجاء في رواية أخرى (نواس).

٣- الإشراف في منازل الأشراف (٣٣١).

٤- منافع تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، رمضان عبدالتواب، ص(٩).

٥- المخطوطات والتراث العربي، عبدالستار الحلوجي، ص(٩، ١٠).

٦- الرقابة على التراث ص(٣٧٩-٣٨٠).

Scanned by CamScanner